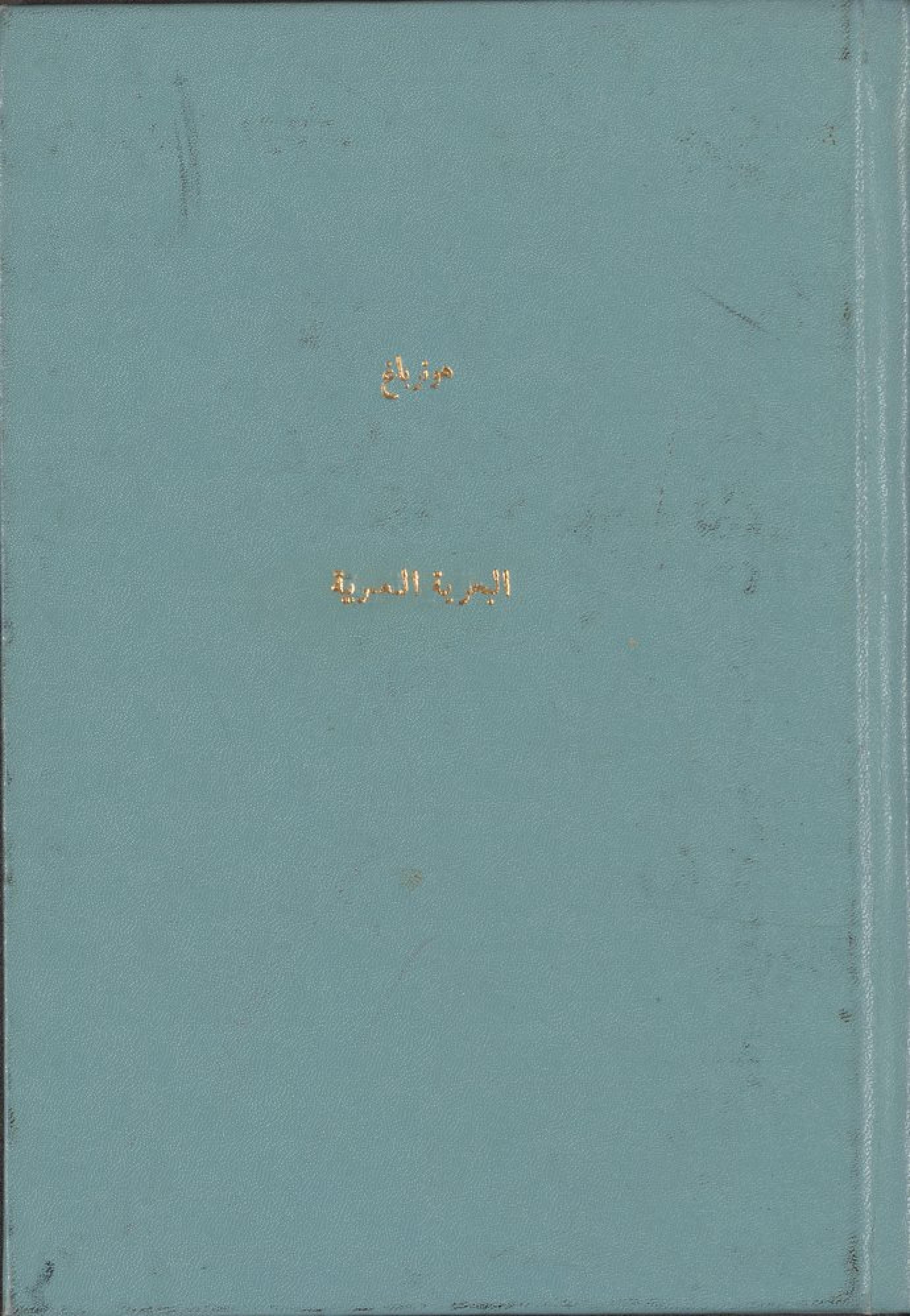
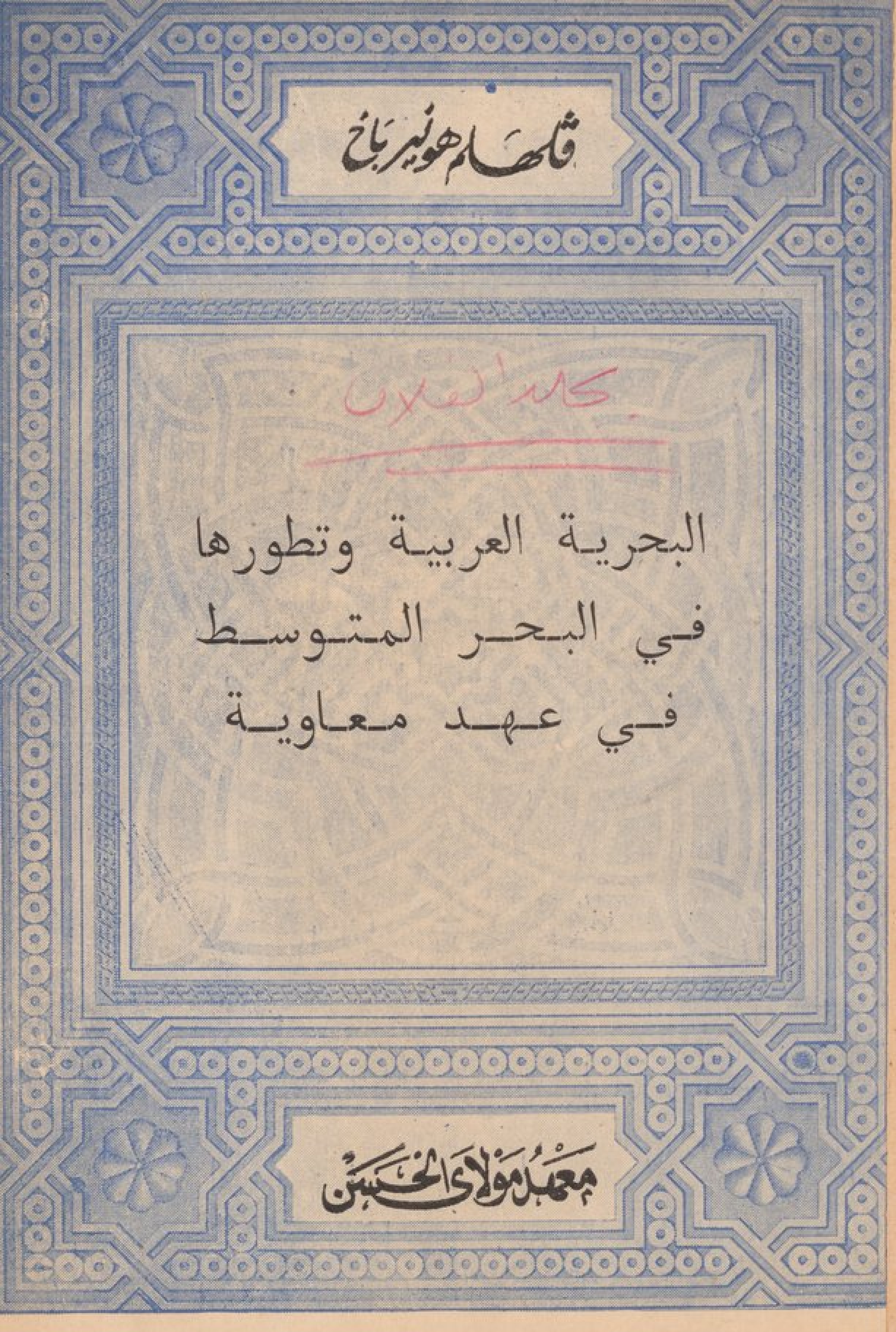
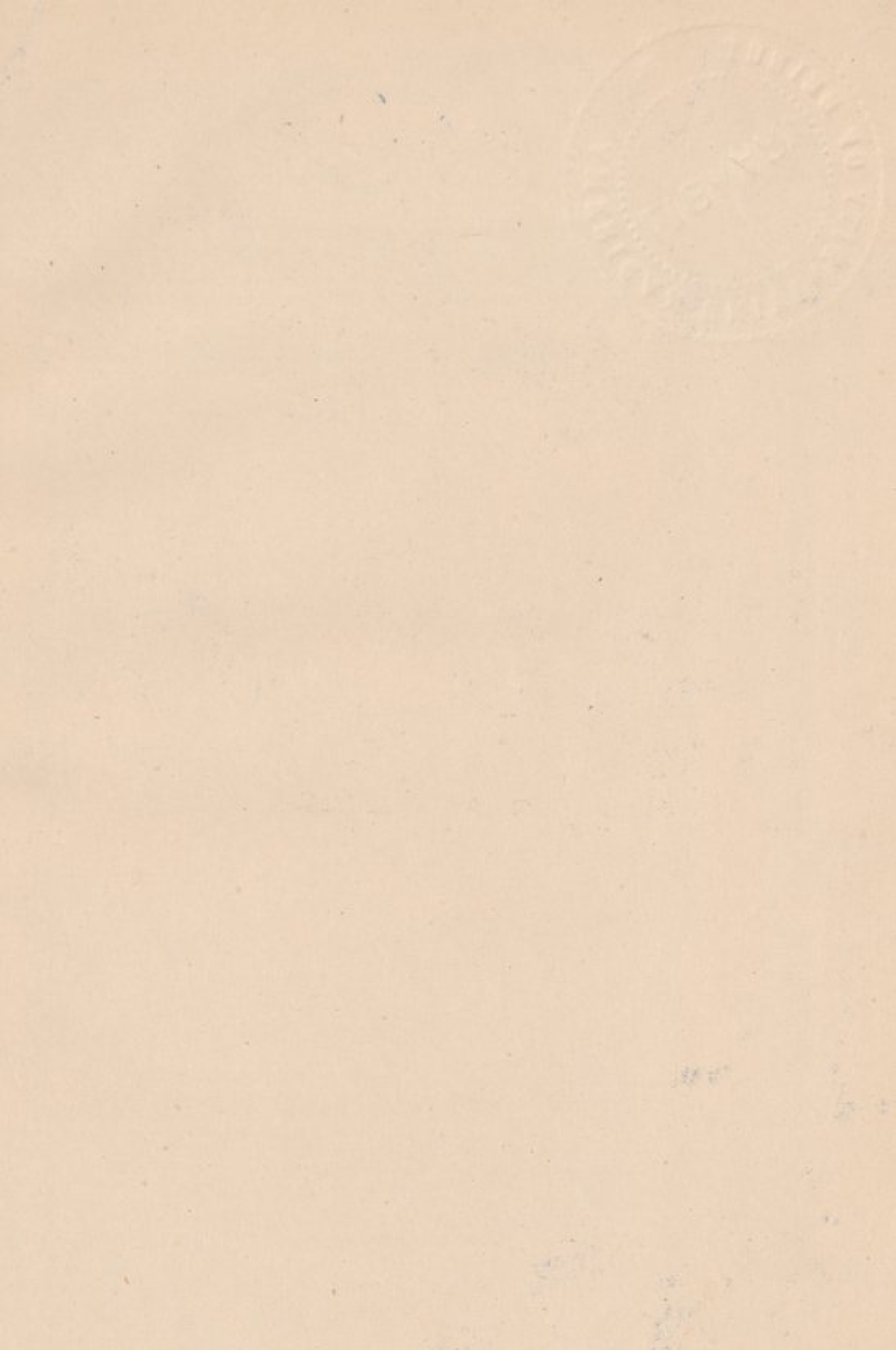
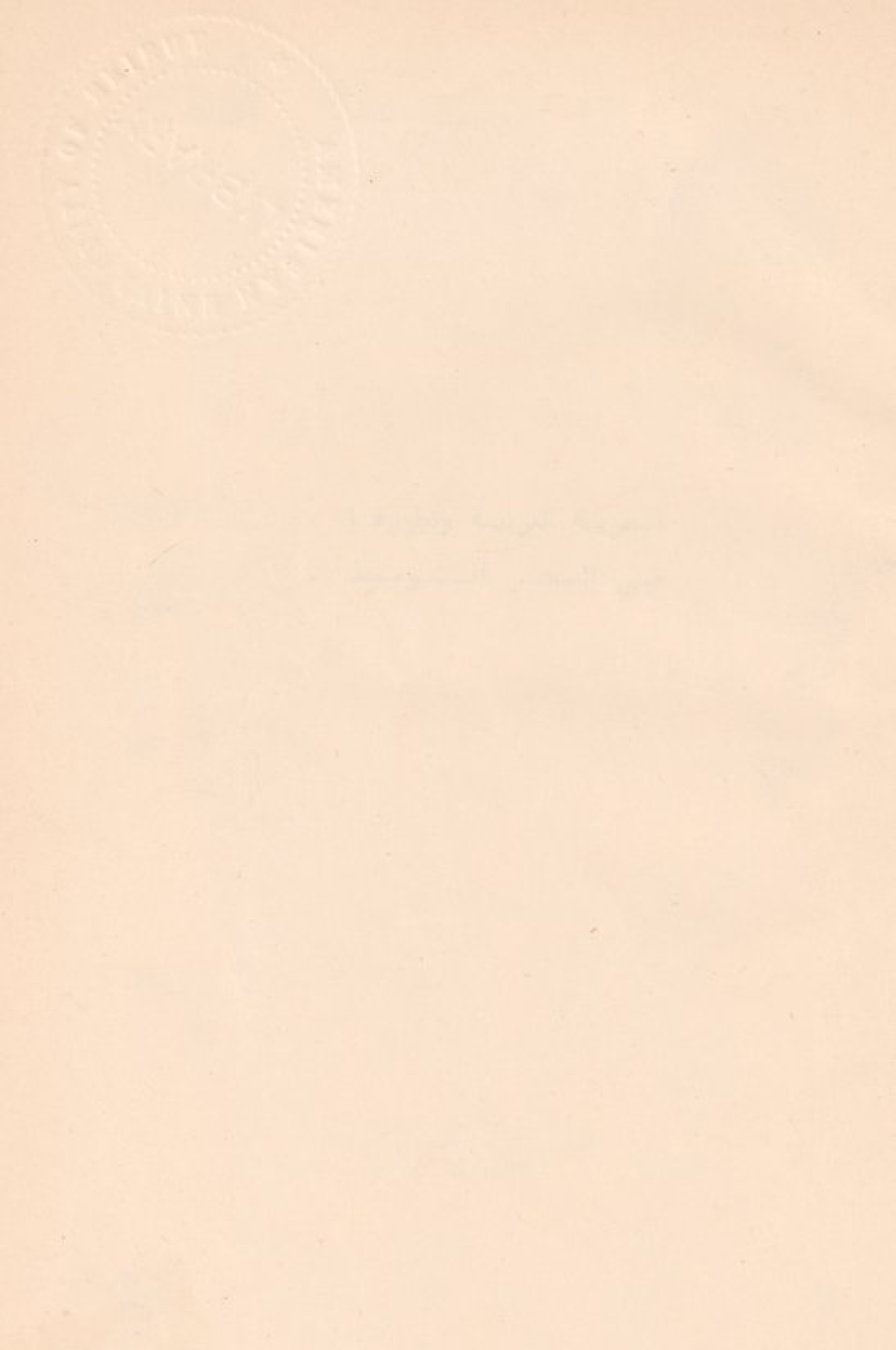

هوزباغ
البحرية المصرية


ڤلهلم هونيرباخ
البحرية العربية وتطورها
في البحر المتوسط
في عهد معاوية
محمد مولاي الحسن







البحرية العربية وتطورها
في البحر المتوسط

معهد مولاى الحسن

البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية

١٩٥٤
دار الطباعة المغربية
تطوان

مطبعة كريماديس ـ شارع محمد الطريس ١٧ ـ تطوان (المغرب الاقصى)

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ قدوم العرب في القرن السابع كان البحر المتوسط حاجزا مائيا بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي؛ وقبل سنوات قليلة بدأ المهتمون بتاريخ العرب يبحثون في تاريخ العرب من الناحية البحرية بعد أن كانوا مهتمين بالناحية البرية. فكان دور البدوى في البحر غريبا الى درجة أن المؤرخين لم يستطيعوا الاجابة عن السؤال الذى يتعلق بعلاقة البدوى بالبحر المتوسط .

وإذ نبدأ الحديث عن الناحية البحرية، علينا أن نعلم أن البحر كان عقبة في وجه تقدم العرب في القرن السابع، فما هي الاسس التي اقاموا عليها تاريخهم البحرى ؟ وما ذا كان موقفهم في زمان عامل الشام معاوية الذى أصبح خليفة من بعد، تجاه ضرورة ركوب البحر؟ وبعد ذلك نسأل عن اسطولهم والوسائل المادية التي استخدموها لبلوغ غاياتهم في البحر، وكيف أمكنهم إخراج هذه الفكرة الى الوجود؟ وفي مناقشة هذه المسائل، فمن الطبيعي انها ستؤدى بنا الى القول بأن الاسطول العربى كان على الطراز البيزنطى ، واخيراً سنبحث في آثار ذلك على العالم الغربى والتي سببها نزول العرب الى البحر مما ادى الى تغير في توازن القوى .

وسنبدأ ببحث مدى قابلية العرب على ركوب البحر .

وكان اللغويون أول من بدأ البحث في علاقة العرب بالبحر، فظهر لهم من كلمتى «السفينة» و «الملاح» الاراميتين أن البحرية العربية جاءت من أصل غريب، ونرى ان الكلمات البحرية اكثرها مأخوذة من لغات أجنبية مما يدل على أن ركوب البحر لم يكن مألوفا لديهم. فهناك تشابه بين الاصطلاحات البحرية العربية والحبشية فى البحر الاحمر مما جعل العلماء يدركون أن العرب قد سبقوا الاحباش فى البحرية. ومن الواضح أن العرب لم يتعدوا السواحل كثيرا فى البحر الاحمر والخليج الفارسى وغالبا ما نرى ان الكلمات الغريبة تدل على أشياء رئيسية مثل كلمة «أسطول» المأخوذ من اللغة الاغريقية στόλος ؛ وهذا دليل آخر على أن البحرية من أصل غريب .

هذا من الناحية اللغوية. اما من الناحية التاريخية فيخبرنا المؤرخون أن العرب كانوا يحصلون على السيوف والخيزران من البحارة الهنود ، فمنذ القديم كانت تشاهد الاشرعة الاجنبية فى موانىء البحر الاحمر وقرب الاسواق الساحلية فى اليمن وفى البحرين ؛ فقد كان بنو ازد فى عمان يدعون بحارة للاستهزاء ، ففقدوا منزلتهم فى عين العرب ؛ فقد ترك عرب مكة والسواحل هذه المهنة لغير العرب؛ ولم يستطع مشهد السفن اليمنية او الحبشية المسماة بالعذولي نسبة الى مدينة Adulis فى سواحل افريقية أن يحرك أولئك القوم البداة ؛ وحتى عند ما قطع الرسول (ص) طريق الشام لم يحاول المكيون سلوك الطريق البحرى فبقيت تجارة العرب محصورة فى الحدود البرية لصحراء العرب، ولم يتوفر فى الجزيرة العربية الموانىء الكافية للتقدم البحرى برغم وقوعها على طريق الهند .

ولكن هل لنا دليل مادى مثل الكتب التى تدلنا على وجود الاجتهاد او عدمه فى الناحية البحرية عند العرب ؟ نعم؛ فقد ذكر فى القرآن الكريم

وكذلك فى الشعر الجاهلى عن مقدرة العرب فى هذه الناحية. فالقرآن الكريم يصف لنا هياج البحر عند هبوب الرياح العظيمة والسحب السوداء المنطبقة على أمواج البحر الهائج، فهو يمثل الكافرين فى حياة الدنيا بسفينة ضالة فى هذا البحر الداكن الظلام المتلاطم الامواج؛ مع ما تقدم فهو يصف البحر وصفا بديعا لكونه الوسيلة الرئيسية لكسب العيش ؛ وذلك عن طريق التجارة ؛ فاننى أجد فى هذا الوصف شيئين أولهما يظهر لنا ان البحر مخيف صعب الركوب؛ وثانيهما بهجة ركوبه لما يدره من أموال للاجانب الذين سبقوا العرب فى الناحية البحرية؛ ومن المدهش أنه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان الملاحون الحبشيون يطلبون من المسافرين شهادة الايمان بوحدة الله وذلك لانهم يعتقدون بأنه اذا ركب كافر فان السفينة سوف تغرق وذلك لغضب الله عليهم(١) وهذا ايضا يوضح بأن العرب متأخرون فى هذا المضمار، فقد سبقهم الحبشيون فى الملاحة فى البحر الاحمر .

هذا ما جاء فى القرآن الكريم؛ وكذلك فالشعر الجاهلى يرينا موقف العرب من ناحية الملاحة. فان شعراء بنى هذيل فى جبال مكة الساحلية وصفوا سير السحب فوق البحر الاحمر التى تسوقها الرياح الموسمية والسواحل الرملية فى قصائدهم الشعرية. وقد تنافس الكثيرون منهم فى إبداع وصف الرياح والسحب متخذين أشكال الحيوانات وصفا لتلك السحب وقد وصفوا الماطرة منها بتاجر يلقى الى الارض ما يحمله من حقائب الاموال؛ فتمثيل السحب والرياح كان فى مقدمة اشعارهم، وأما وصف السفن فشىء ثانوى بالنسبة للاول. فالشاعر ابو ذؤيب يشبه الحرب بحيوان جافل أسند جسمه على قدميه الخلفيتين ورفع الاماميتين

(١) ينبغى أن يعلم ان هذا الامر ليس من مشمول حديث القرآن عن البحر. «المعهد»

بقوة الى الاعلى وصور صوت الامواج المتلاطمة مع الساحل بصوت الحرب؛ ولكنى أعتقد بأن الحصان البدوى قد اثر على فكر الشاعر مما أخر وصف الامواج .

ويعتقد Goldziher بأن الصورة الشعرية التى تمثل القافلة السائرة بالسفن السابحة دليل على قابلية العرب على ركوب البحر. واذا قيل أن بنى تغلب قد ملأوا البحر بسفنهم فان ذلك لا يصح الا فى شعر عمرو بن كلثوم، وان جاز لنا ان نصدق قول ابن كلثوم جاز لنا ان نتقبل قول شاعر آخر يقول إن بنى هذيل وتميم وأسد حاولوا أن يصغروا البحر بكثرتهم .

وقد حان الوقت لترك الادلة؛ لاغراضنا الخاصة نحن نعتقد بأن العرب خافوا البحر فى أول أمرهم ولكنهم استطاعوا بعد ذلك التغلب على مخاوفهم وسيطروا على البحر. ولسنا مستعدين لتأييد رأى Goldziher الذى يذهب الى أن العرب كانوا على العكس مسيطرين أول أمرهم على البحر ثم بدأوا بعد ذلك يخافون منه. أما ابن خلدون فيعتقد أن العرب لم يكونوا ملمين بشؤون البحر والملاحة فيه لانهم كانوا متنقلين فى أرجاء الصحراء ولكنهم بعد قيام الدولة العربية الاسلامية وتأثرهم بالثقافات الاجنبية استفادوا مما يتعلق بالملاحة. وهذا رأى وجيه يصح قبوله .

وقد لاحظنا مدى خوف العرب من البحر ولكن ينبغى لنا أن نعترف بالحقيقة التى تقول إن العرب انتقلوا فجأة من الحياة البدوية الى الحياة البحرية. واللحظة التاريخية لهذا التحول هى سنة ستمائة وخمس وخمسين الميلادية عند ما هاجم اسطول معاوية البيزنطيين فى سواحل Phoenix فى غزوة الصوارى. وهذا النصر جعلهم يفتخرون امام موانىء البيزنطيين بعد أن كانوا قبل سنوات قلائل يخافون البحر

ويعيشون في الصحراء . والآن لنسأل من أين جاء هذا التبدل ؟ وهل كان العرب أنفسهم يشعرون به ؟ ثم كيف حصل هذا التبدل بسرعة ؟

ونجيب عن السؤال الاول بأن ارادة العرب دفعتهم الى توسيع ملكهم، لا كما شاء بعضهم أن يعزو ذلك الى رغبة العرب فى الدفاع عن أنفسهم، مستدلا بأن غزوة قبرس فى سنة ستمائة وتسع وأربعين الميلادية ـ وهذه أولى غزوات العرب البحرية ـ كانت للدفاع فقط؛ وقد كان خلفهم سكان الجبال وأمامهم سفن قبرس البيزنطية فلابد اذن أن يهاجموا قبرس ليحافظوا على ملكهم؛ ويظن أن المسلمين ظلوا يدافعون بأساطيلهم حتى نهاية القرون الوسطى .

ولكن المصادر التاريخية تذهب الى ان العرب كانوا يريدون التوسع لا الدفاع كما قلت انا قبل لحظات؛ وقد كان نصرهم فى غزوة قبرس سهلا جدا واستطاعوا الاستفادة من المعادن التى حصلوا عليها فى جزيرة رودس، ومن التماثيل الثمينة التى حملوها من كنائس صقلية؛ وقد عينت محلات لبناء السفن فى تونس لمهاجمة صقلية؛ وفى سنة ثمانمائة وتسع وسبعين الميلادية أنشأت الدولة الاموية فى الاندلس اسطولا ليجول فى المحيط الاطلسى، لانه كان من السهل على العرب أن ينفذوا من البحر الى القسم الشمال الغربى من اسبانية؛ وأمام ارادة العرب هذه فى التوسع تنهار دعوى الدفاع؛ واتخذ العرب طريقا ثانويا ـ بجانب الطريق البرى المباشر ـ الى القسطنطينية عن طريق البحر المتوسط وقد دل كثير من الاحاديث على وجوب فتح القسطنطينية، وقد قيل أن الخليفة عثمان بن عفان قد تفوه بما يدل على ان العرب يجب أن يفتحوا القسطنطينية برا عن طريق الاندلس بمساعدة الاسطول البحرى؛ وقد كان تطور البحرية العربية غرضا فى اكمال فتوحاتهم؛ وهنا

نستطيع الاجابة على السؤال الاول بأن تبدل العرب من أمة برية الى أمة بحرية كان ضروريا لدحر الاسطول البيزنطى .

وأيضا بالاجابة عن السؤال الثانى - هل شعر العرب بهذا التبدل - فان المصادر التاريخية المستقاة عن الاغريق والاراميين ترينا بأن الشعور بهذا التغير كان ضعيفا عند الاغريق والاراميين؛ ولكن المؤرخين العرب يظهرون بأن شعور العرب تجاه هذا التغير كان عنيفا ؛ والذى لا يدهش البيزنطيين المشتغلين فى البحر قد ادهش العرب البريين الذين دعموا عملهم هذا بأحاديث الرسول (ص) ومنها : ان البحر البيزنطى الكافر قد قرر فى أول خلقه أن يغرق العرب المؤمنين؛ وقد قال الرسول (ص) ما معناه، البحر هو جحيم؛ وقد شاع القسم بأن لا تستهلك قطرة ماء زيادة على الحاجة حتى الموت ؛ ومثل هذه الاقوال نشأت بادىء الامر بسبب كره البحر وتحت تأثير بعض الانكسارات الا انها عملت مع ذلك على حمل المسلمين على القيام بحملات بحرية لفتح بلاد برية عن طريق البحر؛ وذلك فقد شجعت الحملات البحرية؛ وأكثر من أقوال التشجيع للمغامرة بالبحر حتى روى عن الحديث أن من يصاب بالدوار البحرى ويتحمل التقيؤ يعادل الشهيد الحربى وان لم يقتل(١) لذا فان معركة بحربة واحدة تعادل عشر معارك ارضية. وان النظر الى البحر وما وراءه يعتبر عبادة

ونرى ثانية بوضوح أن العرب قد أصبحوا مهرة فى البحار بعد أن تغلبوا على الصعوبات البحرية ومهروا فى أمور البحر - لا كما يرى Goldziher بأن العرب أصابهم الخوف من البحر بعد سيطرتهم على البحر؛ ونجد فى الطبرى اثبات شعور التبدل وذلك بتقدير تقاليد وصفات جديدة فوق القديمة حيث روى أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب

---

(١) تعارض هذه الاقوال وحده دليل على عدم صحتها وان كانت تثبت فكرة التردد فى ركوب البحر أولا عند المسلمين . (المعهد)

وهو الحاكم البـري، لم يسمح بأن يجعل فاصل بحـرى بين المدينة والجيوش الاسلامية ؛ وقد منع المسلمين من نقل الحرب الى البحر؛ وقد كان غضبـه مشهـورا ويهدد قواده الذين يحاولون ركوب البحر؛ ويروى أنه لما غزا معاوية جزيرة قبرس أنبه عمر بن الخطاب باللهجة البدوية : «لقد رميت المسلمين كما ترمى الدودة على قطعة من الخشب» .

كما أنه سأل عمرو بن العاص مستطلعا عن البحر وأحواله فوصفه عمرو للخليفة: «البحر خلق كبير يتصرف بالمخلوقات الصغيرة؛ وليس هناك الا الماء والسماء ؛ لذلك حكم عمر على البحر بأنه يهدد دوما البر بالفيضان والغرق؛ وعليـه لا يسمح للمسلمين أن يقعوا بيد مثل هذا البحر الكافر . ولاول مرة سمح الخليفة عثمان بن عفان بعد تردد وامتعاض بركوب البحر.

وما ظهر لنا من هذا هو تغيير واع للنظر الى البحر، وقد شعر بهذا التغيير جميع الذين جربوا البحر .

٢

حدثتكم فى الحديث الاول عن مدى قابلية العرب لركوب البحر والآن ندرس السبب الذى جعل هذا التغيير يتم بسرعة؟ والجواب على هذا السؤال يستمد من معرفة الاسطول العربى الذى أسسه معاوية .

«ان الامير معاوية لا يستنكف أن يأخذ الرأى الطيب حتى من الزنوج عبيد المسلمين» هذا ما قاله أحد الامويين لمعاوية لبعد نظره ورحابة صدره؛ وسواء كان هذا القول صحيحا أم لا فهو يدل على أن معاوية مستعد دوما للاستفادة من الاساليب القديمة ؛ فلقد وجد فى سورية والمقاطعات الفينيقية مواد أولية جيدة لبناء الاسطول وكذلك بحارة ماهرين . ولذا فقد بنى اسطولا بحريا يشبه الاسطول البيزنطى الاغريقى أكثر مما يشبه الاساليب العربية، وفى غزوة الصوارى كانت هناك فى الاسطول المصرى سفن قديمة كانت تنقل الحبوب الى القسطنطينية البيزنطية ، استخدمها معاوية للغزوات البحرية ؛ والآن أوضح ما عثرت عليه من إثباتات لهذه القضية .

اننا لا نملك كتابا يصف اسطول معاوية الا أن مخطوطات البردى التى وجدت فى مصر تحتوى على المراسلات العربية الاغريقية للعامل

قرة ترينا بوضوح دور الانتقال من العصور القديمة الى العصر الاسلامى الجديد ؛ وفى أول مرة نجد فى الدور العباسى بعض النبذ عن أسطول معاوية وذلك فى كتابات بعض الجغرافيين والمؤرخين ؛ وان الاسماء التى ظهرت للسفن قد وجدناها فى المصادر العربية فى القرن العاشر الميلادى ومنذ هذا التاريخ نجد مصادر وافية للاسطول البحرى فى زمن الفاطميين والايوبيين والمماليك وبالنسبة لبحثنا فان ذلك مهم فقط بالنسبة للمقارنات فقط .

فان Ῥωμαϊκὸς στόλος اليونانى يقابل ما دعى فى القرن الثانى الهجرى بالاسطول أى مجموعة من سفن أو مراكب؛ ماذا نعرف عن نوعية السفن؟ ان المصادر العربية تخوننا فى معرفة تفاصيل ذلك فهى تفرق بين سفن ومراكب ولا تزيد على ذلك الا بتسمية القارب الذى يستعمل للنقل السريع والاخبار؛ وهذا القارب صنع فى محلات صنع السفن فى سنة سبعمائة وتسع ميلادية، وهو Κάραβος المذكور فى مخلفات البردى التى مر ذكرها حيث ذكر ايضا فى هذه الوثائق ἀκάτιον وهو مصغر ἄκατος وكل من ἄκατος و Κάραβος كان قاربا يستخدم لدى الاغريق لنقل الاخبار والاوامر؛ وهذان القاربان استخدما لنفس الغرض فى اسطول معاوية. زيادة على ذلك فاننا نجد عند المؤرخين الاراميين ذكر قارب صغير باسم قرقور (Κέρκουρος).

ونسأل عنا عن أيها كانت سفنا للقتال ؟ ان Theophanes البيزنطى يسمى سفينة معاوية σκάφη أى «سفينة»؛ بينما هذه الكلمة الاغريقية تعنى عند الاغريق σκάφη او δρόμων διήρης سفينة مزدوجة المجاديف؛ والقيصر البيزنطى Leo يذكر هذه السفن بانها كانت عند الاغريق وعند العرب فى زمن العباسيين. كذلك ظهرت هذه السفن δρόμων فى كتابات البردى وان الاراميين قد استخدموها فى العصر

السادس الميلادى؛ ولهذا فالاسطول العربى يتكون من هذه السفن δρόμων؛ وما ذكر Leo بحيطة حول نوعية هذه السفن ينطبق على سفن معاوية ايضا ؛ فقد وصف ذلك بما يلى :

تتكون من طابقين يجلس فى كل جهة فى كل طابق خمسة وعشرون مجدفا؛ اما السفن الكبرى ففيها ضعف هذا العدد الى مائتى رجل؛ يقوم بالتجديف خمسون رجلا فقط اثناء المعركة بينما يصعد الباقون الى ظهر السفينة للاشتراك بالمعركة . ومعاوية قد استعمل فى الغزوة الاولى البحرية الحجارة والمنجنيق ؛ وكيف تصرف العرب فى المعارك البحرية وكيف استعملوا الحجارة والمنجنيق واقتربوا من البيزنطيين واصطدموا وجها لوجه بواسطة ربط السفن سوية ـ وكيف هزموا كذلك عدوهم الذى تعب من القتال، هذا ما يقصه علينا القيصر Leo البيزنطى بجد ورصانة فى كتابه وغزوة الصوارى طبقت هذه الاساليب فى القتال احسن التطبيق :

فالسفن العربية تبدأ معركتها الاولى بقتال من قبل الاسلحة البعيدة المدى؛ ففى الجولة الاولى تكون الرماح والسهام؛ وفى الجولة الثانية يبدأ رمى الحجارة، ويرافق كل من هاتين الجولتين نداء القائد العربى بأن البيزنطيين قد يربحون المعركة لمهارتهم فى الرماية؛ الا ان فى الجولة الثالثة ظهر العرب لاول مرة عاقدين السفن مع سفن الاعداء ويبدأون المعركة بالسيف كما على الارض عندئذ ينتصر العرب. فالنصر البيزنطى معناه: بقاء البيزنطيين بعيدين عن العرب حيث يستثمرون مهارتهم البحرية ، اما نصر العرب فهو عند مواجهتهم البيزنطيين عن قرب كما على الارض حيث تظهر الشجاعة العربية المعهودة فى المواجهة القريبة .

والمؤرخون الحربيون يؤكدون على أن البيزنطيين ينتصرون بواسطة اختراعاتهم الكثيرة للقتال الا ان المؤرخ الالمانى Schlözer يرى :

Aber, indem man hinter Wall únd Mauer durch Kunst únd Strategie siegen wollte, ging der entscheidende Charakter des Krieges verloren!

فى الوقت الذى يقصد به أن يحرز النصر بالاستعانة بالحواجز والخنادق وبواسطة الفن وخصائص المواقع، فان الخلق الحقيقى للحرب يفقد تماما

وهذا الرأى الحربى ينطبق على المواقع البحرية . وهل سيقود الميكانيك الى نجاح جديد ؟ هذا يتطلب اختراعات أساسية ؛ وهذه الاختراعات قد حدثت من سنة ثلاث وسبعين وستمائة الى ثمان وسبعين وستمائة ميلادية؛ وذلك بايجاد النار اليونانية حيث ان هذا الاختراع وآثاره قد وصفت كثيرا ؛ فالمصادر الارامية مع مصدرين بيزنطيين ترجع النصر البيزنطى الى فضل النار السائلة بينما Bar Hebraeus يدعى بان العرب أول الامر قد انتصروا ومنذ وقت اختراع النار أخذوا ينتصرون أحيانا ويغلبون؛ أما المؤرخون العرب فلا يذكرون عن ذلك شيئا ، واذا ما وثق الانسان بأقوال Theophanes والاراميين فى وصفهم انقاذ القسطنطينية بواسطة هذه النار اليونانية ، فلا يسع للانسان الا أن يقدر الميكانيك البيزنطى والاختراعات التى حصلت فيه من قبل الميكانيكى الارامى Kallinikos ؛ وكان بامكان معاوية الاستفادة من هذا الميكانيكى كما استفاد من المهارة المحلية فى هذا الموضوع ، الا أننا لا نعرف شيئا يذكر عن ذلك .

بينما نجد ان معاوية قد استفاد من البحارة القبط وذلك فى سنة خمس وخمسين وستمائة ميلادية ، كما ان عبد الملك بن مروان قد أرسل ألفا من القبط الى معامل السفن فى تونس. وفى معامل السفن الاموية فى مصر سنة تسع وسبعمائة ميلادية كان يعمل عمال محليون يدعون بنو بج المقتبسة من الاغريقية ναυπηγός وكان يعمل ايضا نجارون خاصون، وهم عمال مختصون بلحم ثغرات السفن، ويدعون فى الاغريقية Καλαπάτης والتاريخ يعرف حتى تفاصيل أجور عملهم

اليومي، ففي العصر الاموى والطولونى كان يعمل فى البحرية وقيادة السفن عمال يونانيون وقبط ، حيث ان الرؤساء والنوتية كانوا القادة القدماء الا ان الفرق العسكرية التى تقاتل على السفن كانت من العرب، فقيادة السفينة الميكانيكية كانت بيد رئيس السفينة؛ اما قيادة القوة المحاربة على ظهر السفينة فكانت بيد القائد العسكرى وهو يقابل قائدا لمائة رجل على الارض شبيها بالقيادة البيزنطية لا سيما لدى القائد Hekatontarch.

ان قوائم انتخاب الجنود للقتال البحرى كانت واضحة ثابتة حيث كان معاوية يستخدم القبائل الكلبية التى كانت النواة للقوة العسكرية فى سورية والتى كانت تفوق منافسيها من القبائل القيسية، لذا فقد كانت تقوم بالعمليات البحرية لما عرف عنها من طاعة وتنظيم، وقد كانت العوامل لنجاح اسطول معاوية ما يلى :

وضع حماية كافية للسواحل، واصلاح جميع الموانىء التى خربها البيزنطيون، وبناء دار الصناعة حيث اختيرت مدينة عكا فى سنة تسع وستين وستمائة ميلادية مركزا لحركة الغزوات البحرية، ولكن قد أبدلت عكا بعد ذلك بصور الا ان عكا عادت فى زمن العباسيين الى المراكز البحرى ثانية، وذلك بأن عكا تعتبر وسط المواقع البحرية الفينيقية والمصرية ، وان محل صنع السفن الذى قام فى جزيرة فى نهر النيل سنة ثلاث وسبعين وستمائة قد أنتج بعد هذا الوقت سفنا كثيرة . اما فى المغرب فان محل صنع السفن فى تونس قد خضع لنظام صنع السفن الذى قام على أنقاض المحلات البيزنطية ، وان البربر قد قاموا بعمل السفن تحت قيادة الاقباط الذين جىء بهم من مصر، وان الشعب المصرى المحكوم قدم بالاضافة الى هؤلاء ضريبة مالية ومواد أولية لصنع هذه السفن . على أنه استطاعوا أن يصنعوا من الحديد الخام الذى أرسلته

الدولة لمحلات صنع السفن والمسمى «مازين» مقتبسا من الكلمة الاغريقية Μαζίον مسامير للسفن؛ أما العرب فقد كانوا يفضلون نظرا للتجارب التى نالوها، السفن ذات المسامير على السفن التى كانت تشد بالحبال

واذا ما تصورنا أول انجاز لصنع السفن؛ رأينا أن البيزنطيين يعجبون جدا ويدهشون لسرعة صنع السفن، من قبل العرب، وهى تستند على التقاليد البيزنطية المالوفة، وهنا تظهر عظمة هذه العملية بحيث تعتبر خطوة تاريخية كبرى أدهشت الجميع ، ونطق بعظمتها الكاتب الارامى حيث وصفها بما يلى :

لقد كان البحر شبيها بالغابة لكثرة عدد السفن التى كانت تغطى سطح الماء الى مسافات بعيدة ، فقد كانت الاشرعة تنصب على شكل أبراج عالية، وبذا تموج السفن بقوة وتبرز قعور البحر العميقة؛ وكل من يرى هذه السفن تأخذه الدهشة ؛ حيث انها تقرب من تغطية جميع الامواج البحرية؛ وعليها رجال محاربون أقوياء مدججون بالسلاح ، يهددون قبرس، الجزيرة الجميلة، تلك التى لم تمس بسوء من قبل القرصان، بالاخضاع والتخريب .

والسؤال الاخير هنا هو : لماذا استطاع هذا الاسطول الجديد والقوة العربية أن تنشأ بسرعة ؟ والجواب على هذا هو ان البيزنطيين أوجدوا الاسس الاولى .

٣

في حديثنا الثالث عن الاسطول العربي نقدم لمحات عن السياسة البحرية في زمن معاوية .

لقد تغلب العرب على خوفهم البحري باتخاذهم الخصائص البحرية عند البيزنطيين مثلا لهم . فلقد غدت التقاليد البحرية للاسطول البيزنطي الاسطول المعادي لهم، فالآلات التي استخدمها معاوية في العمليات البحرية قادت الى شيء جديد حاسم في القرون الوسطى .

في سنة تسع واربعين وستمائة بعد الغزوة الاولى وقعت معاهدة الحياد مع جزيرة قبرس التي اشترطت ان تدفع الجزية وتبقى غير محتلة . وفي سنة اربع وخمسين وستمائة نزلت فرق في جزيرة رودس. وفي السنة التي تلتها قابل القيصر كونستانت الثاني أعداءه مقابل سواحل (لوكية) قرب (فونكس) الا انه خسر المعارك وفر هاربا الى بيزنطة ، وبعد ذلك ذهب كونستانت نتيجة لخصامه مع البابا مرتينوس واستوطن سداكوس (صقلية) التي غزاها العرب سنة ست وخمسين وستمائة من الاسكندرية واخضعوها؛ ولقد نهبت صقلية ثانية عند ما قتل

القيصر لكن خليفة القيصر كونستانت المسمى كونستين تمكن من ارجاع العرب الذين تقدموا الى القسطنطينية مجددا .

ان الخلافـات العربيـة الداخليـة أرغمت العرب على الرجوع بعد انتصارهم في فونكس ؛ الا أن سفن معاوية الذى اصبح خليفة، تمكنت ان تحاصـر عاصمـة قيصر، ولقد حصلت معارك بحرية قاسية لعدة سنوات تمكنت النار اليونانية في الاخير أن تضع حدا لها، ولقد قال تيو فانس فى ذلك مبتهجا : (بعون الاله وبمساعدة أم الاله ذهب العرب خاسرين وانسحبوا بعد هذه الخسارة الكبيرة وان اسطول عدو الله الملعون قد ذهب الى الفناء).

وفى سنـة ثمانيـن وستمائة توفى معاوية فاستقر بوفاته تاريخ القسم الشرقى من البحر المتوسط فى خطوطه الاساسية .

واذا لاحظنا النتيجة نرى ان السيادة البحرية البيزنطية قد ضغط عليها لكنها لم تكسر ؛ حيث البحر المتوسط له المقام الثانى بالنسبـة لسياسـة الخلافـة البريـة ، بينمـا يحتل المقام الاول نسبة للسياسة البيزنطية . ان تنظيم الشعوب فى البلاد الواسعة بين البحرين البيزنطى والهندى والتنازع على السيادة والانفصال فى الحجاز والعـراق والشام وبلاد ايران الواسعة، كل ذلك استنزف قوة عربية كبيرة ووقف فى وجه المسلمين فى البحر، لا سيما فى البحر المتوسط . فمعاوية ترك السياسة البحرية بعد انتصاره سنة خمس وخمسين وستمائة على الاسطول البيزنطى وتوجه نحو الخلافـة فـى المدينة والكوفة ؛ وبهذا يكون قدساير قانون البلاد الطبيعى، وحتى فوزه فى الخلافة لم يمكنه من الوصول فى البحـر الى المنزلة البيزنطية؛ فالبيزنطيون يعتبرون البحر شيئا أساسيا لهم، اما الامويون فانهم ينظرون اليه كوسيلـة مثل بقية الوسائل الاخرى التـى

يمكن أن تترك زمنا حتى أن العباسيين تركوهم طويلا دون ان تتعرض الدولة لخسارة او ضرر .

على أننا لا نعرف تماما فيما اذا كنا محقين بان نتكلم عن رغبة معاوية فى السلطة البحرية ؛ فالمستشرق Lammens يعتقد أن معاوية كان راغبا فى السلطة البحرية، ولكننا لا نجد أثرا آخر يؤكد ذلك . ولكن بيزنطة تحمل فكرة السيادة البحرية حتى فى خيالها؛ اذ نجد فى وقت خسارتها صوتا ينادى في البيزنطيين : « الاسطول هو مجد الملك » . و Konstantin Porphyrogennetos يتخيل دائما امتداد سلطته البحرية قبل مجيء العرب، حتى تصل الى نهاية البحر المتوسط على شواطىء Herkules، فكان يقول إن سلطتنا تمتد على كل بحرنا .

على انني لم أجد مثل ذلك فى أقوال معاوية، فان رغبته الكبرى تتوجه على التوسع البرى ، وان مهمة اسطوله حماية جوانب جيوشه . وليس هناك أثر لاصطلاح «بحرنا» أو «ملك البحر» وربما يكون فى حديث الرسول (ص) الذى يعجب من الشعب الذى يعلو البحر كما يعلو الملك سريره، إشارة الى فكرة الملك، وهذا القول قد ذكر فى غزوة قبرس . فالمقارنة بين اعتلاء البحر واعتلاء العرش يطابق الرغبة الاموية فى فكرة الملك ، ولكن عرش البحر قد ذكر مقرونا بأبليس فى بعض احاديث الرسول (ص) (١) .

وأرى أن الرغبة فى السلطة البرية هى تكوين الملك العربى؛ فبعد انتصار العرب فى فونكس لم يمنعوا البيزنطيين من السفر فى البحر ، فقد كان باستطاعة كونستانت دائما ان يصل بسفينته من بزنطة الى ايطاليا

---

(١) لا يصح شىء من الحديث فى هذا المعنى؛ على حين ان الحديث الذى يشير اليه الباحث قبل هذا حديث صحيح موجود فى المصادر المعتمدة كالبخارى . (المعهد)

وفى زمن العباسيين اصبحت الغزوات البحرية من الجهتين انما هى عمليات اعتيادية فى شرقى البحر المتوسط، وهذه النتيجة ليست واحدة بل كان العرب ينظرون الى سفرة كونستانت بعد معركة فونكس كنتيجة لانكساره فى المعركة، ولم يعرفوا العداوة الدينية بين كونستانت والبابا لانه اراد ان يجد تعادلا دينيا بين اليعقوبيين والارثوذكس ولم يثق بالبابا، لذلك نقل محله الى روما على مقربة من البابا، وحيث أن العرب لم يعرفوا هذه التفاصيل، أوضحوا بأن معاوية وسلطانه هو الذى نقل القيصر من القسطنطينية الى روما .

اما البيزنطيون فانهم يفسرون سفر القيصر الى ايطاليا هزيمة من الثورة فى عاصمته، والآراميون يذكرون أن جنود القيصر كانت تقول أنها لا تليق به أن يكون فى روما بعيدا عن مواقع القتال، اما كونستانت نفسه فقد علل ذلك بأنه مدين لحماية الام قبل حماية البنت، يعنى أن روما أم الملك ومركزه، لذا فهى أعظم من القسطنطينية التى تقع على أطراف المملكة، فالضغط العربى يجبر بزنطة أن تنتقل الى روما وتسبب الاسراع فى الخلافات التى اقتربت فى بادىء الامر ولكنها فى النهاية تصادمت .

ان خليفة كونستانت الذى تغلب على الاسطول العربى فى البحر المتوسط الشرقى اتبع سياسة البابا الدينية، ولذا فقد ظهرت روما متحدة مع بزنطة التى استطاعت أن توجه قوتها نحو الشرق ، لان آخر هجوم عربى كان سنة ثمانى عشرة وسبعمائة ضد ليون الثالث .

ومنذ سنة خمس وعشرين وسبعمائة ابتعدت روما عن الامبراطورية البزنطية بسبب النزاع حول تعليق الصور فى الكنيسة .

فالبابا الذى تراجع بسبب سياسته الدينية فى الشرق وبسبب تقدم العرب فى الغرب اتجه نحو الشمال حيث عقد سنة احدى وخمسين

وسبعمائة اتفاقية الاتحـاد مع الكارلونييـن، وبذلـك دنت ساعة ولادة قيصرية القرون الوسطى وتغير وضع البحر المتوسط؛ فان بزنطة التى كانت تدعوه «بحرنا» لم يبق لها منه غير الخيال، اما العرب المراقبـون فقد احتفظوا لها به .

احتفظ العرب بفكرتهم عن الحالة السياسية لما جاءوا الى البحر المتوسط، اما البحر البزنطى فانـه يمتـد عند الجغرافيين العرب حتى نهاية البحر المتوسط، وسواحل البحر تكون وحدة جغرافية، ولكنها من الوجهة السياسية كانت مختلفة. أما القسم الاسلامى فكان تابعا للخليفة فى بغداد، ولذلـك فالبحر البيزنطـى يقتصـر علـى بيزنطة واليونان والرومان والمناطق المسيحية الافرنجية .

يعتقـد الاسطخرى، وهـو جغرافـى مشهور فـى منتصف القرن التاسع الميلادى، أن روما ركـن من اركـان المملكة المسيحية؛ وان مراكز البطاركة تقوم فى الاسكندرية والقـدس وانطاكية كما تقوم فى رومـا نفسها . وينتقل هذا الرأى الى ابن حوقل والادريسى الذى استطاع أن يصف لنا هذه الحالة على وجهها الصحيح . اما المسعودى فيرى أن أوتو الكبير قد انتقل الى ايطاليا سنة احدى وخمسين وتسعمائة للميلاد وظن ان ملك روما كان تابعا لملك القسطنطينية منذ الجاهلية حتى ذلك التاريخ . ولاول مرة فى تلك السنة أصبح الملك فى روما قويا وصـار يضع التاج على رأسه ويرتدى الوشاح ويلقـب بالملك، وهـذا يعنى أن العرب قد فهموا هذه التغييرات فى المملكة المسيحية وفى المناطق الشمالية، ولاول مرة منـذ وقـت اوتو الكبير، وربما كان العرب أنفسهم سببا فى هذه التغييرات كلها .

أين تقوم نتائـج وآثـار التاريخ البحـرى العربـى على المناطق المسيحية فى البحر المتوسط ؟

ان الهجوم العربى قد أجبر القيصر أول مرة أن ينتقل الى روما ومنها مباشرة الى الدفاع عن المياه الاغريقية بينما البابا لم يكن يستطع التوجه الا الى الشمال ؛ ويرى المؤرخ «بيرن» أن هـذه النطـورات التى أحدثها الاسلام قد أدت لاى تخريبات فى الحضارة والاقتصـاد . وهذا الرأى يثير السؤال : هل ما زالت هناك أيام معاوية تجارة عبر البحـر المتوسط ؟ ويرى «بيرن» أن المسلمين كانوا مستوردين لا مصدرين فى شرقى البحر المتوسط.

أما مناطق التصدير فى شرقى البحر المتوسط فهى تقع فـى داخل المناطق التـى أصبحـت مسلمة، فنجد المنتوجات القديمة كالبردى فى مصر لم يتوقف تصديـرها. وكذلـك لم تنقطع الحركـة التجارية البزنطية مع سوريا ومصر حتى بعد احتلالها.

واستنادا الى بعض اخبار الطبرى، أرى أن التجارة بقيت مستمرة بين البيزنطييـن والعرب حتى فى أوقات الحروب على عهد الامويين . فيذكر الطبرى أن جاسوسا عربيا كان يجوب المناطق البزنطية بزى تاجر عربى، فقبض عليه البزنطيون ولما وجدوه يحمل نقودا كثيرة قتلوه ظنا منهم أنه أمير عربى . وهذا مما يدل على وجود تبادل تجارى فى شرقى البحر المتوسط. أما فى غربى البحر المتوسط فيدعى بيرن أن نقليـات السفـن الارامية عبـر البحر كانـت مستحيلـة، لـذا فالعلاقـة بيـن مرسيليا وموانـىء البلاد الشامية قد توقفت تماما منذ سنة ست عشرة وسبعمائة .

هل توقفت المواصلات تماما فى البحر ؟

ان مسألـة وجـود نتائج سيئة للحالة الاقتصادية ما زال مشكوكا فيها . فهل نستطيع القول بأنه قد ظهرت دول جديدة فى النصف الثانى

للقرن الثامن فى أوربا الشمالية نظرا لتوقف المواصلات مدة ثلاثين سنة فى البحر ؟

ان بيرن يدعى أن هجوم العرب هو الذى سبب سقوط التجارة فى البحر المتوسط وان سقوط التجارة هو الذى سبب التردى الاقتصادى عند المرويين ولذلك تغلب عليهم الكارولين ؛ ولذا فانه لم يكن ممكنا ان يقوم شرلمان لولا ظهور محمد (ص) الا أن بيرن يعتقد أن تراجع المرويين قد حصل بين سنة ثلاثين وستمائة وبين سنة اثنين وثلاثين وستمائة أى فى الوقت الذى كان فيه البحر المتوسط وحدة ، واستنادا الى هذا التناقض نجد بأن قطع المواصلات فى البحر المتوسط من قبل العرب لا يوصلنا الى قضية شرلمان .

أما الجواب على السؤال بالنسبة للمواصلات من قبل المصادر العربية فلا نجده واضحا .

وخلاصة ما تقدم :

ان العرب الذين استعاروا المفردات البحرية من اللغات الاخرى يقررون بأنهم قوم ألفوا الحياة البحرية ، ولذا فان البحر غريب عنهم بينما المحاكاة الادبية للقرآن والشعر الجاهلى تبرهن تخوفهم المحقق من البحر بالرغم عن وجود تحبب تجارى نحو الملاحة الاجنبية، وان الظروف التاريخية قد سببت تغيرا مفاجئا غير منتظر عند احتياج معاوية ـ عامل الشام والخليفة بعد الى سفن للهجوم على القسطنطينية . ومن اقتدائه النافع استطاع أن يدرك الفوز والظفر. بينما البيزنطيون الذين اتخذهم العرب مثالا يحتذى، كانوا يفضلون الحرب بعيدين عن العدو ـ كان الانتصار يأتى عند ما تكون السفن مرتبطة بعضها ببعض ـ وهى الخطة الحربية العربية التى تجعل المحاربين يتقابلون وجها لوجه .

كان بناة السفن عند معاوية يتقاضون المساعدة والمعونة من القبط كما كان ينقسم الامر والنهى على متن السفينة الى قسمين : بحرى وحربى . وكانت قبيلة بنى كلب هى الموالية لمعاوية، ولذا فانه قد اتخذ منهم جنودا لسفنه . وأسست مصانع السفن بعكا ومصر ، ولقد دشن الاسطول جهوده ونشاطه فى سنة تسع واربعين وستمائة ميلادية، عند ما انتصر فى جزيرة قبرس انتصارا أثر فى جميع المعاصرين . ولقد زلزل بشدة ذلك السلاح الظافر الجديد قلب المملكة كلها واعنى به القسطنطينية . والعرب بالرغم عن ذلك كله، وهم فى أعماق البحار، لم يكونوا يفكرون قط فى انهم يمتلكون زمام البحر، ولكنهم كانوا يفكرون قبل كل شىء فى أنهم بريون ولقد أقاموا بذلك حاجزا فى وجه مملكة البحرية لابيزنطية، بدون أن يحطموها فى الحين ، فرض العرب على القسطنطينية بأن تدافع عن نفسها كما فرضوا على روما بأن تحالف شمال أوربا، ولقد أصبح البحر الابيض المتوسط الغربى بفضل قاطعى البحر من «التجار» مفتوحاً نسبيا للتجارة التى أنشئت بسرعة بين البيزنطيين والعرب . والبيزنطيون قد استعملوا كل مجهود لديهم لدفع العرب عنهم، حيث بقى البابا بدون عون، مما جعله يضطر لقبول حماية الشمال .

وعلى هذا فيمكننا أن نقول بأن الغزو العربى أثر فى علاقات القوات المسيحية بدون أن يكون ـ لذلك ـ هذا التأثير سببا مباشرا وقاعدة لوجود القوات المذكورة .

تم طبع هذا الكتاب
في معامل دار الطباعة المغربية
شارع ابن حساين 10 ـ 12
تطوان (المغرب)


WILHELM
HOENERBACH
LA MARINA ÁRABE DEL
MAR MEDITERRÁNEO EN
TIEMPOS DE MUʿĀWIYA
INSTITUTO MULEY
EL-HASAN

